انتحار الإخوان

قيادة الإخوان البائسة تنفذ عملية انتحار جماعى على طريقة «شمشون» فى أساطير التوراة، تلقى بشباب الجماعة إلى التهلكة، وتدفعهم إلى مغامرات وحماقات قطع الطرق، وتسفك دمهم فى مواجهات غير متكافئة مع سلطات الأمن والأهالى الغاضبين، وتتصور أن بوسعها خنق البلد، وهدم المعبد على رؤوس من فيه، وشل حركة المرور، وفتح الطريق لعودة مرسى إلى قصر الرئاسة، مع أنها تعلم ـ يقينا ـ أن ذلك بالضبط هو أمل إبليس فى الجنة.

فقد طويت صفحة مرسى إلى الأبد، وربما تكون صفحة الجماعة ذاتها قد طويت، وإلى أن يهيئ الله للجماعة قيادة صالحة تخلع القيادة الطالحة، والتى تغسل بدم شبابها ذنوب القيادة، وتضلل شباب الجماعة بعد أن أخفقت فى تضليل الشعب، وتلهيهم بخرافات ما أنزل الله بها من سلطان، ومن عينة أن سيدنا جبريل ملاك الوحى ـ عليه السلام ـ ظهر فى اعتصام رابعة العدوية، أو أن شيخا مأفونا رأى فى المنام سيدنا محمد ﷺ يصلى وراء محمد مرسى، أو أن كل شاب إخوانى يسقط قتيلا صار من الشهداء، وأن على أهله وضع صورة مرسى مع القتيل فى كفنه، وحتى تخفف عنه عذاب القبر، ولاحظ التناقض المرئى فى الخرافات نفسها، فكيف يكون المرء شهيدا، ثم يخاف من العذاب؟!، فالقصة كلها خالية من دين الإسلام الذى نعرفه، وهم يخرجون من ملة الإسلام، ويؤلفون لهم دينا خاصا بهم، ليس محمد بن عبد الله هو رسوله الكريم، ولا الله الذى نصلى له هو إلههم، بل ضلالهم هو الذى يعبدون، ومرشدهم هو الوثن الذى يقدسون، وشيوخهم أقرب بضلالاتهم إلى فصائل أبى جهل وأبى لهب وامرأته حمالة الحطب، ونجواهم ليست لله، بل إلى أمريكا التى ترعاهم، ولغتهم

هى اللغة الإنجليزية التى يفهمها ساكن البيت الأبيض، ولذلك غيروا لافتاتهم فى رابعة العدوية، وحولوا لافتات المنصة إلى اللغة الإنجليزية رأسا، وأزالوا لافتات الشريعة، ربما لأنهم يعرفون فى قرارة أنفسهم حقيقة ما يفعلون، فهم أبعد الناس عن معنى الشريعة، وأقرب الناس إلى دهس شريعة الإسلام وتقديس شريعة الأمريكان، فلا هم لهم ولا أمل إلا مناشدة الأمريكان والأوروبيين والإسرائيليين بالتدخل فى مصر، وقد فعلوها صراحة وعلى لسان قادتهم الكبار المختبئين فى اعتصام رابعة، وباللغتين العربية والإنجليزية، وقالها أحدهم بصراحة : كم شهيدا تريدون حتى يتدخل المجتمع الدولى لإعادة مرسى؟، وحين استبطأوا الجواب، دفعوا بالمزيد من شبابهم إلى المحارق والمجازر، وحتى يزيد عدد الأكفان إلى الحد الذى يتصورونه مطلوبا، وكلما زادوا فى سفك الدم، انصرف عنهم الناس، وانفض عنهم الشعب الذى أسقط حكمهم بعشرات ملايينه، وهو ما يدفعهم أكثر إلى الكفر بالناس بعد الكفر بالله، وإلى ما يتصورونه انتقاما على طريقة شمشون، فيدفعون جماعات الإرهاب إلى العمل بأقصى همة فى شرق سيناء، وإلى تدبير الاعتداءات الدموية على الناس العاديين بعد قوات الشرطة والجيش، فلم يعودوا يتنصلون من العنف على الطريقة التى تظاهروا بها فى بادئ الأمر، بل صاروا يتباهون بالإرهاب، ويقول أحدهم: سنوقف الإرهاب فى سيناء لو عاد مرسى، وهكذا ثبتت التهمة، وصاروا كالمريب الذى يقول «خذونى»، ولن يفلتهم أحد لا من عقاب ولا من حساب، فقد ضبطوا متلبسين بارتكاب جرائم الخيانة العظمى، وبالاعتراف الصريح الذى هو سيد الأدلة.

وحين تكتمل الصورة، وتطوى الصحف، وتجف الأقلام، ويكتب التاريخ سيرته، فسوف يقال إن هذه القيادة البائسة هى التى أبادت جماعة الإخوان فى طبعتها الثانية، كانت الطبعة الأولى بقلم حسن البنا، وكانت طبعة دينية اجتماعية، وبتنظيم عسكرى سرى نشأ بداخلها، ودخلت فى صدام مميت مع ثورة جمال

عبد الناصر بعد سنتين على قيامها، ولم تصمد الجماعة - التى كانت تضم وقتها نصف مليون عضو - فى المواجهة كثيرا، فقد مزج عبد الناصر بين المواجهة الأمنية والمواجهة التاريخية، وقدم مشروعا فكريا سياسيا وطنيا اجتماعيا سحب البساط من تحت أقدام الجماعة، ولم تبق منها سوى عصبة إرهابية صغيرة جرى دوسها أواسط الستينيات من القرن العشرين، وبعدها بعشر سنوات، كانت طبعة ثانية من الجماعة تنشأ بعد الفناء السياسى للطبعة الأولى، وفى سياق الانقلاب على ثورة وتجربة واختيارات عبد الناصر، وبدعم مباشر من سلطة السادات، والتى سلحت جماعات طلابية دينية بالجنازير والمطاوى والسكاكين، ودفعتهم إلى الصدام العنيف لضرب المعارضين الناصريين واليساريين بالذات، وكان ذلك هو المورد الأول الذى أمد جماعة الإخوان ببداية جديدة وطبعة جديدة، كانت سياسة السادات قد خانت إنجازات السلاح فى حرب أكتوبر ١٩٧٣، وكان «انفتاح السداح مداح» - بتعبير أحمد بهاء الدين - يؤتى أكله فى تفكيك التعبئة الوطنية والتنمية المستقلة، وكانت عودة الإخوان رديفا للنفوذ الأمريكى المتزايد فى مصر وقتها، وكان السادات يغطى خياناته باصطناع «زبيبة صلاة» تتوسط جبهته، وبترديد عبارة «الرئيس المؤمن» و«أنا رئيس مسلم لدولة مسلمة»، وكان زحف فوائض المال الخليجى يعطى مددا مضافا لنشر أفكار يمينية متخلفة، وكانت مصر توضع فى القيد الاستعمارى من جديد، وبمعاهدة السلام التى انتهت إلى نزع سيادة السلاح فى سيناء، وبالمعونة الأمريكية الضامنة، والتى أدت إلى نزع سيادة قرار السياسة والاقتصاد فى القاهرة، وجعل السفارة الأمريكية فى وضع دار المندوب السامى البريطانى القديم، وهو ما انتهى إلى استعباد مصر، وتجريف التربة الوطنية، وتجريف الزراعة والصناعة والثقافة والسياسة، وتحلل المعنى الوطنى لجهاز الدولة، ثم تحلل المجتمع نفسه، والذى انتهى إلى هجرتين، هجرة بالجغرافيا بحثا عن الرزق، وهجرة فى التاريخ بظاهرة العودة الدينية المعممة، وتحول المجتمع إلى غبار بشرى تسوده مشاعر البؤس

واليأس، وقد خاطبت التيارات الدينية بؤس المجتمع كجمعية خيرية، ثم خاطبت يأس المجتمع كجمعية دينية، وهو مناخ بدا مثاليا لتضخم وتغول الطبعة الثانية لجماعة الإخوان، والتى احتفظت بقشرة دينية موروثة عن الطبعة الأولى، برز على سطحها أفراد من خط سيد قطب التكفيرى، لكن الجوهر كان مختلفا، فالصاعدون الجدد فى جماعة الإخوان كانوا مزيجا من المهنيين ورجال البيزنس التجارى، وقد بنى هؤلاء إمبراطوريتهم وقواعد نفوذهم فى سيرة مختلفة، سيطروا على تنظيمات الطبقة الوسطى من اتحادات الطلاب إلى النقابات المهنية، ثم مدوا النفوذ إلى طبقات أدنى بتحويل الإخوان إلى جماعة حماية اجتماعية، تجتذب الشباب البائس بفرص عمل وزواج مريح فى مجتمع نزل بغالبه إلى ما تحت خطوط الفقر والبطالة والعنوسة والمرض، وهو ما يفسر ما بدا من نجاحات انتخابية متلاحقة للإخوان، لكن الدودة ظلت تنخر فى أصل الشجرة، فجماعة البيزنس الحاكمة للإخوان لاتعرف لها دينا غير فلوسها، وتعاملت مع فرصة السلطة المتاحة كأنها إعارة إلى بلد خليجى واسع الثراء، وغلبتها شهواتها ومطامعها فى الاستيلاء السريع على مفاتيح المال والسلطة، وحولت قضية التمكين الدينية إلى تمكين دنيوى يستخف بكل دين، وسقطت فى وحل الخيانة للأوطان والأديان، وهو ما عجل بسقوطها وفشلها المدوى، وانتهى بها إلى عزلة شعبية تكاد تقتلع جذورها، وهو ما لاتعيه القيادة البائسة التى نحرت جماعة الإخوان فى طبعتها الثانية، ثم تدفع شبابها إلى انتحار جماعى على مذبح الفشل.

"صوت الأمة" فى ٢٢ من يوليو ٢٠١٣